

الفصل السابع

التوجهات العملية

وفيها بحثان (الأخلاق الإسلامية سبيلنا إلى المطلق)، (دعم الوسائل الإسلامية).

أولاً . الأخلاقية الإسلامية:

هي آخر حلقة في سلسلة أخلاق الأديان السماوية وأكملها، والمسلمون يعتقدون والنصوص الإسلامية تؤكد أن نبي الله محمداً (صلوات الله عليه) هو خاتم النبيين وآخرهم⁽¹⁾، مع أنه لا فرق بين أحد من الأنبياء.

لقد انتهت المهمة التي كانت تقتضي ظهور الأنبياء منذ أن أمكن للبشرية أن تؤوب إلى «الرشد» بعقلها، لقد استقرت النصوص الإلهية التي بينتها آيات الهدى في القرآن، ووضعت بين أيدي البشر وأنظارهم مكتوبة بوضوح ومصونة عن الضياع محفوظة في السطور والصدور بسورها وجملها وكلماتها، بل وحروفها، دون أن ينالها أدنى تغيير وتحريف وهي تدعو الإنسان حيثما كان إلى اتباع الهدى (الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) والإفادة من التعقل والقناعة التامة من غير إكراه {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: 256].

وبدهي أن تتفق النظرة الإسلامية إلى الأخلاق مع أصول⁽²⁾ نظرات الوحي في الديانات السماوية كلها، وتنهض على أسس تكملها وتترقى معها.

(1) {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: 40].

(2) ويأسف الإنسان لأن كثيراً من هذه الأصول قد نالها عند أهل الكتاب البلى والتحريف بسبب تقادم العهود وغياب النصوص، وهذا بحث تاريخي قائم بذاته ويحتاج إلى تحقيق. المؤلف.

دليل أهم هذه الأسس الأمور الآتية:

1- لا يتمكن الإنسان إذا ترك لوحده، من تقدير «ما يجب أن يكون» عليه سلوك البشر، إن الإنسان قادر عن طريق الحواس ومعطيات الحس على معرفة ظاهر الوجود (أو ما هو كائن) وهذا ما يصنعه العلم.

2- ولو ترك الناس ليشرعوا بأنفسهم قواعد الحياة العامة لانساق كل فرد لاتباع هواه⁽¹⁾ وما يراه لمصلحته في حدود معرفته ولو على حساب غيره، وكذلك فعلت وتفعل كل فئة بشرية بغيرها من الفئات الأخرى خلال أزمنة طويلة يمكننا أن نسميها أزمة ما قبل الرشد، ففي هذه الأزمة كان إيقاع الأذى والظلم، يمارسه الأقوياء على الضعفاء، عنوة وقسراً أمام الجميع والمعتقد المظنون أن هذه الأزمنة قد ولى عهدها وتوارى في حين أن الوقائع تؤكد أن الأمم الأقوى ما تزال منساقاً باهوائها ومصالحها (أو ما تراه مصالحها) تجاه الأمم الأضعف، وفي داخل الأمة الواحدة أقيمت القوانين (الوضعية) تستهدف تقييد الظلم وضبطه، فبإمكانها تقييد الظلم الغبي⁽²⁾، أما الظلم الذكي فيما يزال في نجوة من عقوبة القانون ما دام (منطق العواطف) قابلاً لأن يُستخدم بمهارة وما دامت شهوة التحكم أقوى وأمضى من تصورات العقل وتصديقاته وتدعم نفسها بالأوراق النقدية وما إليها وهذا ظلم أبرع من غيره تستخدمه العقول ذاتها وتسخر من أجله الأدمغة وتدبج من أجله البحوث وتوضع له الكتب، والكثير من المذاهب مثل العولمة، وإذا أضفنا إلى هذا كله ما يلاحظه علماء النفس من أن العقل أقل

(1) قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجمعة: 23].

(2) على غرار ظلم رجال الدين والأشراف قديماً في أوروبا وظلم الاستعماريين، ومن بعدهم رجال العولمة.

الأدوات تأثيراً واستعمالاً في حياة البشر، وأنه إذا استدعي لإبداء شهادته كان قميئاً هزلياً أمام القوى الإنسانية الأخرى⁽¹⁾.
إذا أخذنا كل ذلك بعين الاعتبار أدركنا لماذا تظل هناك حاجة إلى الأديان، وإلى الإسلام بوجه خاص في معالجة شؤون الأخلاق والحياة.

3- إن عناية الله تعالى بالبشر ورحمته أكبر من أن تدعهم ضحايا الزيغ والضلالة دون إرشاد، ولهذا أرسل الله رسله الذين اصطفاهم ليبلغوا الناس ما لهم وما عليهم، ويدلوهم على صوغ الحياة الكريمة والأخلاق الفاضلة.

4- وصحيح أن هذه الحياة الدنيا هي مرحلة عابرة وظل زائل، إلا أنها تحمل في ذاتها كل الإمكانيات كي تكون حياة طيبة كريمة، إنها قصيرة في مداها ولكنها يمكن أن تكون مليئة وحافلة⁽²⁾.

وعلى الرغم من أن الحياة ليست بدار قرار لكن الإنسان كان وما يزال يتوق إلى الاستقرار ويسعى إلى الطمأنينة مع ما يلقي في حياته من عنت وقلق واضطراب، أليس هذا دالاً على أن في أعماق البشر وتركيبهم النفسي شيئاً من التطلع إلى الإله المطلق، وتشوقاً ونزوعاً إلى الخلود؟

وهكذا نرى أن داعي الإيمان هو الداعي إلى الكرامة والنقاء في هذه الحياة وفي كل حياة.

ثانياً: دعم الوسائل الإسلامية لأخلاق المسلمين:

من الواجب أن توضع برامج عملية منسقة تُناقش خطواتها وتُحدد أزماتها تبعاً للأولويات.

ونقدم فيما يأتي بعض المقترحات التي يمكن أن تناقش وتتحول إلى برامج.

(1) ينبوع الأخلاق والدين (برغسون) فصل 3 و5.

(2) { تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا } [الأحزاب: 44].

أهم هذه المقترحات الأمور الآتية:

- ترجمة المعاني والمفاهيم الواردة في التراث إلى اللغة الدارجة، (العبادة ونتائجها الأخلاقية) (الصلاة والصيام والدعاء) و(تلاوة القرآن الكريم) و(أحاديث الرسول المكرم).
- الاستفادة من العلوم الإسلامية المختلفة في دعم التربية (تربية المربين، تربية الأسرة، تربية المرأة والطفل).
- تعزيز الاتجاه الإسلامي في الاهتمام بـ(بر الوالدين) (البر بالجار) (احترام المؤسسات الاجتماعية) و(الملكية العامة).
- تصحيح معنى العمل في الممارسة اليومية.

1- ترجمة المعاني والمفاهيم الواردة في التراث: وبتعبير آخر علينا أن نستخدم علماً مثل علم النفس والاجتماع والحضارة في تحليل المعاني الإسلامية وأبرزها (النفس المسلمة)، (المشاعر التعبدية)، (فعاليات الإنسان الروحية) (أنشطة العبادة... الخ) وإذا كانت الأفكار الإسلامية هامة فإن خدمتها والحدب عليها وجلاءها كل هذا يجب أن يُوظف في تكوين الذات المسلمة. أعني الذات المفكرة للمسلم. إن القرآن الكريم محفوظ، ويهمن أن تُحفظ نفوسنا ومشاعرنا في إطاره.

وأخلاق القرآن إذا شئنا أن تصل إلى صغارنا فلا بد أن تتجسد فينا قبلاً، إن صغارنا يتأثرون بسلوكنا أكثر مما يتأثرون بما يسمعون منا أو يقرؤون، ويجب أن تمر فترة قد تطول حتى يحسنوا الاستجابة مما يسمعون أو يقرؤون. ثم إن الأخلاق تُعلم بالمناسبات (والمناسبات العاطفية بوجه خاص) لا بالمواعظ (وإن كانت المواعظ المحكمة الدقة ذات تأثير حقيقي ولا يستهان بها).

2- العبادة وآثارها الأخلاقية: لعلها من الوسائل الكبرى الآيلة إلى تكوين الذات المدركة للمسلم. فهي لا تساعد على تكوين الأخلاق السلوكية وحسب بل وعلى تكوين المبادئ والقناعات الداخلية (أو تهذيب المشاعر الباطنة)، والعبادة تؤدي أكلها عندما يدركها المتعبد ويفهم ما يصنعه فيها، كما يفهم ما ترمي إليه ثم يلتزم به.

لا بد أن يمارس الطفل العبادة حتى يألفها أولاً ثم يلتزم بها كعادة ثانياً ثم يتذوقها كأمر محبوب حلو وعذب.

(كان والدنا رحمه الله إذا مررنا معه في الطريق ونحن أطفال يضع في يدينا بعض الليرات كي نعطيها للسائلين فنعود بها العطاء لمن يحتاج، وكنا نتمتع بهذا، ونذكره إذا نسي أن يعطينا، حتى أصبح العطاء شيئاً محبباً لنا في ذاته مع الأيام).

ولما كبرنا أدركنا المتعة بل المتع التي تتأتى لنا حين نمد يدينا للمساعدة فنحس بأنعم الله علينا.

(والذي يقرأ الآية المتعلقة بالعطاء يدرك الأهمية النفسية لهذه الفعالية الحلوة. قال تعالى في سورة الليل: { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } [الليل:5].

ونلاحظ هنا أن المولى تعالى قدّم العطاء على التقوى، وقد يستدل من ذلك أن العطاء يفتح النفس بطريق الممارسة وهو جزء من التقوى ولكنه جزء عملي. والنتيجة حصول اليُسْر (أو التيسير) في الحياة. وبالمقابل فإن البخل يؤدي إلى العسر وليس هذا بمستغرب في قانون الأسباب والمسببات.

الصلاة: صلة بين العبد وربه، وهي أيضاً صلة بين العبد وإخوته المسلمين، وأخص خصائصها الحمد.

1- إنها صلة بين العبد وربه وتؤدي هذه الصلة إلى صقل النفس ومنحها صفاء وبصيرة، إنها تجسّد نظرتنا إلى إمكاناتنا الروحية ومشاعر أنفسنا في إقبالها على الله وهي بمقدار ما تصفي أعمالنا، تقوي هممنا، والصلاة تصلنا بالله بلا وسيط وهذا هو المعنى الرائع لها.

2- إنها تصل بين عواطفنا القلقة وتربطها بسر الحياة الروحية ومصدرها. فهي ربانية لارهبانية.

3- والخشوع فيها شرط لصحتها وهو ضبط الحركات والجوارح وفهم الكلمات.

4- ويُنصح المرء دفعاً للشرود أن يُعنى بفهم المعاني المقبلة في التلاوة، فالتفكير في المستقبل ملائم لطبيعة النفس ويؤدي إلى ربط كل فكرة بما يليها بوصفها حلقات في سلسلة متواصلة.

5- وأما صلة المرء بإخوته فتساعده كي يحبهم في الله، سيما أنه يجتمع بهم ويأنس برؤيتهم ويتأسى بأحاسنهم ويؤثر فيهم ويتأثر ولهذا كانت صلاة الجماعة أفضل من الصلاة المنفردة. وينصح بعض المؤمنين إخوانهم بأن يتصوروا أن الآخرين قد يفضلونهم عند الله فيسعى لينتفع من نفسياتهم ويتواضع أكثر فأكثر معهم.

6- أما مزية الحمد فهي الأثرية العظيمة أكثر في الصلاة. إن عالمنا الأرضي وبخاصة عالمنا المعاصر لا يبعدنا فقط عن الله، وإنما يبعدنا عن الشعور بأهمية الحياة. والحمد جزء هام من الصلاة يبدأ به المسلم وينتهي بالحمد والتمجيد لله في صلاته، إن عالمنا الأرضي يخلو شيئاً فشيئاً من الرضى، والمقصود بالرضى ليس القعود عن العمل والقناعة بالضئيل، وإنما المقصود به الفرح الهائى الداخلي الذي نشعرنا بدفع النعمة وعظمتها⁽¹⁾، إن النعم تغمر الدنيا وتزداد وتنمو لدى الشعوب والأفراد، فتملأ العالم ولكن المؤسف أن زيادة الثروات والترف لا يُعيننا على تقدير النعم، وقد يكون صحيحاً هنا أن نذكر أن لب الصلاة أو روحها، ينمو ويزدهر من إدراك الشعور بإنعام الله وأفضاله علينا.

نفسية النعمة:

1- المُنعم هو الله، فلنشكره أن خصنا بها مهما كانت.

(1) جاء في بعض أحاديث الرسول الأعظم قوله «إن الله عز وجل قد جعل الفرح والروح (أي الراحة) في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في السخط والشك».

- 2- مَنْ يشكر يتنعم أكثر من مرة، مرةً بالشيء المُنعم ومرة بتذكر النعمة نفسها، ومرة بأنه شكر وما نكر وبأنه أطاع وما كفر.
- 3- من يقدر الشكر على القليل يمكنه أن يقدر الشكر على الكثير.
- 4- من يقدر شكر الناس يمكن أن يقدر ويتقوى لشكر الله. والمهم روحية الشكر أو الأثر النفسي الناتج. والعكس صحيح فشكرنا الله يجب أن يتحول إلى إحترام الناس وتقدير جهودهم البناءة.
- 5- لا يكفي أن نتلفظ بألفاظ الشكر أو نفهم معناه بل لابد أن يُوظف الشكر في متابعة العمل أو السعي وتنمية الدوافع الفعّالة وخدمة من أحسن إلينا وأعاننا وحتى من لم يحسن أو من لا نعرف.
- 6- والنتيجة من كل ذلك أن يغدو المرء عبداً شكوراً (وفي ديار الشام يستعمل معنى الوجه الشكور بأنه حسن وممتلئ).
- 7- وبين يدي الآن كتاب في أمراض القلب لـ(دين أورنيش) وآخر لـ(بيرني سيغل)، فيهما تنويه عظيم لأهمية الراحة النفسية التي يخلفها الشكر والطمأنينة وأثرهما على الشرايين التاجية المغذية للقلب وفي دعم المناعة ضد الأمراض.

الدعاء:

- في الدعاء تفرغ للنفس من التوترات وشعور بأن قوة الخالق التي نظمت وتنظم باستمرار إحداثيات الحياة تُسخر لنا، والمؤمن الذي يقرأ {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: 186] يُدعم مشاعره بل ويبث الطمأنينة في نفسه.
- إن نفسية الإنسان المعاصر مليئة ومفعمة بالشدة stress فتتعاطم احتمالات الإنحراف والزيغ والمرض العضوي الذي يتناول القلب وضغط الدم وبقية أمراض الحضارة وفي كل دعاء أمران إثنان:
- 1- شعور بضعفنا وإعتراف بحاجتنا إلى الله، وهكذا ندعو ربنا خوفاً وطمعاً.
 - 2- طمأنينة إلى عظمة خالقنا وقدراته.

الصوم:

وفيه إعادة يومية للتوازن وإنقاذ لنا من الآلية، وكثيرون منا من لا يشعرون بالأهمية الصحية والنفسية لشهر الصوم إلا بإنقضائه، ولعل هذا هو مغزى العيد، ونضيف إلى ذلك أنه إعادة النظر إلى قيم الأشياء. الطعام طعامك وهو لك ولكنك لا تمسّه والزوجة هي الحلال ولكنها لا تُمس في الصيام. إنها تجربة لا نظير لها، تجربة صنع الحرية. «الصائم المتطوع أمير نفسه، إن شاء أكمل صيامه وإن شاء أفطر» (حديث شريف). وفي هذه التجربة يتم شئ غريب وهو إشتهاء ما نملك. قال أحدهم: إني أرى زوجتي تتألق في كل يوم أصوم. وإذا كان معروفاً أن الصوم يشعّرنا بعُضّة الجوع، فإنه في الوقت نفسه يساعدنا على أن نشعر بحلاوة الشبع. وهنا يحسن أن نذكّر بضرورة تشجيع الصغار قبل أن يبلغوا العاشرة على ممارسة الصيام وأن يُقدّم لهم الإكرام والتشجيع وما إليهما... من هدايا وأعطيات وذلك ريثما يدركوا الصيام كمعنى.. ويتبلغوا بمعناه العميق.

% % %